دراسات فى النقد [1]

طريقة أرسطو فى النقد الأدبى

بقلم محمد رشاد رشدى

كتب (أوسكار وايلد) مرة يقول : إن أعلى أنواع النقد هو سجل الروح . فالناقد لا يرى فى العمل الفنى أكثر من وحى يوحى اليه بعمل جديد شخصى قد لا يكون بينه وبين العمل المنتقد أى وجه من وجوه الشبه ، هذا الرأى (لأوسكار وايلد) يصف لنا مدرسة بأجمعها من مدارس النقد ـ أعنى بها مدرسة الشموريين . وفى ضوء هذه المدرسة سأحاول أن أستخلص طريقة (أرسطو) فى النقد ومدوسته . فاذا ما فرغت من هذا حاولت أن أناقش هاتين المدرستين مع أى مدرسة أخرى قد تمت إليهما بسبب

ولأجل أن تكون المناقشة جلية واضحة سأبدأ الآن بأن أقتطف من بعض النقاد نبذاً كتبوها عن شكسبير

كتب الناقد الفرنسى (تين) عن الشاعر الكبير فقال : « أظهر مافى شكسبير خياله القوى الذى لا يعرف قناعة أو راحة ، فهو يبعثر الاستعارات فوق كل ما يكتبه ، وفى كل لحظة تتغير خواطره إلى صور قوية واضحة ، ويعرض لنا عقله رسومات وأشكالاً متتابعة ، وشكسبير لا يرى الأشياء أبداً فى هدوء . بل إن قوى عقله جميعها تتركز فى الصورة أو الخاطر الذى يعالجه تركزاً يملك عليه كل نفسه ويمتص كل قواه الأخرى . إن كتابنا المتوسطين يجعلون كل همهم فى أن تكون كتاباتهم منطقية واضحة جلية وهم فى الغالب يصيبون ما يقصدون ، بيدأن شيئاً واحداً يبقى بعيداً عن متناولهم . ألا وهو الحياة

أما شكسبير فهو على عكس هذا يدع الوضوح والمنطق لنفسيهما ويجعل كل همه أن يصيب مايكتبه الحياة والحركة . ولهذا السبب يبدو شكسبير لنا غريباً وقوياً ، مبدعاً وخالقاً أكثر من أى شاعر من شعراء عصره أو غير عصره . أبدع من وصف النفس البشرية ، وأبعد الشعراء عن النطق وتفكير القدماء المتزن ، وأقدرهم على أن يثير فى النفس دنيا من الأشكال والصور الحية التى لا تموت »

وكتب (كارليل) عن نفس الشاعر يقول : « إنه لفيما أسميه رسم الصورة — معالجة الرجال والأشياء تكون عظمة شكسبير . فعظمة الرجل تأتى يقيناً من هذه الناحية — من العين المبصرة ! تلك هى العين التى تكشف لنا عن الوسيق الكامنة فى الخلق . عن الفكرة الجليلة التى قد ضمنتها الطبيعة مخلوقاتها جميعاً . على أن الشاعر لأجل أن تكون لديه هذه الهبة يجب أن يكون عنده من العقلية القوية مافيه الكفاية . فان امتلك الرجل عقلية قوية كان شاعراً فى كلامه . فان لم يستطع هذا كان — وذلك أفضل وأجدى — شاعراً فى أفعاله

وكتب (سير والتر رولى) عن شكسبير فقال : « إن قوة خياله لا تسمح له بأن يجد الراحة فى فكرة أو ناحية واحدة فهو فى استطاعته أن يدرس حياة الرجال مثلما يدرس المرء الحياة على ظهر باخرة . وهو دائم الاهتمام بما يحدث يومياً بين أفراد العائلة الانسانية ، غير أن للصورة دائماً فى عقله أساس واحد ترتكز عليه ، ذلك أنه دائم التفكير فى البحر — البحر الذى لا يعرف لقوته حداً والذى لا يسيره عقل أو منطق ، والآن من الواضح أن النقاد الثلاثة مشتركون جميعاً فى تحديد الصفات الأساسية التى تكون عظمة شكسبير كما أنه من الواضح أيضاً أنهم يختلفون كل الاختلاف فى الطرق التى سلكوها فى نقدهم . فمع (تين) نرى أن شاعرية شكسبير إنما تأتى من أنه أبعد الناس عن المنطق العادى وتفكير القدماء المتزن ؛ ومن (كارليل) نعلم أن ميزة الشاعر الأساسية فى أن تكون عقليته ممتلئة ناضجة ؛ ويبدو من هذا أن كلا من الناقدين يعتقد أن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسه ، « فتين » العاطفى القوى الخيال يزدرى المنطق العادى ، ويرى فيه عقبة فى سبيل الشعر ، و « كارليل » الذى كان اعتماده فى حياته على فكره دون عاطفته يرى أن العقل وحده جدير بأن يخلق الشاعر وأن يجعله مبدعاً عظيما

أما (رولى) فهو لا يفعل شيئاً من هذا ، فهو يهتم فقط بأن يوضح ويعلق ، وأن يشرح ويعلل دون أن يعنى بالمدح أو بالحط من قيمة الأشياء ، ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نحكم

(١) هذه هى أول دراسات فى النقد الأدبى الغربى سأتبعها بدراسة تفصيلية لتطور النقد عند الانجليز منذ نشأته الى وقتنا الحالى

ما إذا كان تفكير شكسبير الدائم فى البحر ، البحر الذى لا يعرف لقوته حداً والذى لا يسيره عقـل أو منطق ، يزيد فى شاعرية الشاعر أو ينقص منها . ونحن لا نرى النقـد هنا سجلاً لروح الناقد ومشاعره ، وإنما كل ما نراه هو وضوح فى الأسلوب ودقة فى الوصف وقوة فى المنطق ، وتلك هى مدرسة أخرى من مدارس النقد تختلف عن مدرسة (أوسكار وايلد) ينحو النقد فيها منحى البحث العلمى حيث لا نجد لشاعر الناقد نفســه أو لإحساسه الشخصى إزاء ما ينتقده أثراً من الآثار

تلك هى المدرسة الفكرية أو الاتباعية ، وقد كان أول من أسسها الفيلسوف الأغريقى (أرسطو)

ونحن لا نحسّ هنا أثراً لذات الناقد ؛ فهو بعيد كل البعد لا نراه إلا كما نرى الرجل العلمى من خلال بحثه — الفكر والمنطق — ذلك هو الأساس الذى بنى عليه (أرسطو) طريقته فى النقد ، كان الرجل دقيق الملاحظة للطبيعة والفنّ ، وإنه لمن هذين الينبوعين فقط نراه يستقى كل آرائه ، يبنى كل نظرياته ويستنتج كل استقراءاته

وليس (لأرسطو) آراء شخصية يفرضها على القارئ ؛ فهو إن مدح شيئاً فليس يمدحه لأن نفسه تتعشقه أو تميل إليه ، ولـكن لأن التجارب قد أثبتت أن هـذا الشىء صحيح جدير بالتقدير . خذ مثلاً حديثه عن الشعر القصصى إذ يقول :

(أما عن البحر الذى يكتب فيـــه هذا الشعر فهو (بحر الأبطال) ، فان أراد شاعر أن ينظم قصيدة قصصية فى غير هذا البحر ، كان شعره شاذاً غير مألوف . إذ أن التجربة والطبيعة نفسها قد وقفت هذا النوع من الشعر على ذلك البحر)

(وأرسطو) لا يسمح لنفسه مطلقاً بأن تتمسك برأى من الآراء أو أن تمدح شيئاً أو تذم آخر دون سبب أو علة ، بل هو يقنع بأن يشرح القبيح دون ذمّه ، وأن يظهر الجميل دون مدحه ، شأنه فى هذا شأن أصحاب المدرسة الواقعية فى القصص الحديث ، وهو فى هـذا أيضاً يختلف عن أصحاب المدرسة النظرية فى النقد التى كتب عنها (أرنولد) يقول : (هى جماعة من النقاد ذات لون فلسفىّ باطل خدّاع ، تجيش بنفوسها بعض الآراء الخاطئة التى لم تبنها التجربة والفكر ، بل بنتها الأوهام والعواطف الذاتية تريد أن تفرضها على كل ما يقع فى يدها من شعر أو فنّ

والناقد من أتباع تلك المدرسة لا يمدح عملا إلا إذا صادف هوى فى نفسه وسدّ حاجة من حاجياتها ؛ فان هو لم يفعل كان العمل باطلاً زائفاً ، وكذلك من مميزات هذا الصنف من النقاد أنهم يعنون بمحتويات العمل الفنى أكثر من عنايتهم بالفنّ نفسه — أعنى بالأسلوب والطريقـة والجمال — كما أنك كثيراً ما تسمعهم يقولون : (حبذا لو ترك الشاعر هذا الموضوع وكتب فى موضوع كذا وكيت) ، وذلك كما لا يخفى أردأ أنواع النقد وأحطها قدراً ، إذ أنّ واجب الناقد الأول أن يفحص ويحكم على العمل الذى أمامه داخل دائرة العمل نفسه وحدوده لا خارجها ، محاولاً أن يتفهم ما يقصده الشاعر ويرمى إليه ، والى أىّ مدى استطاع أن يبلغ قصده وأن يبرز فكرته للقارئ

وقد يجدى أن نعطى هنا مثلا من أمثلة هذه المدرسة النظرية الخاطئة لنرى الى أى حدّ يبعد (أرسطو) عنها ويرتفع

كتب (أوسكار وايلد) أحد نقاد هـذه المدرسة — فى رأيى — يقول : (لأن نمضى من فن عصر من العصور إلى العصر نفسه هو أكبر خطأ يرتكبه المؤرخون جميعاً ، فالفن الردئ الزائف كله إنما يأتى من الرجوع إلى الحياة والطبيعة والتسامى بهما إلى مراتب المثل العليا !)

من هـذه النبذة نستطيع أن نحكم بأن (أوسكار وايلد) كان يدين بهذا الرأى الذى يعطينا إياه — ولـكننا لا نستطيع القول بأن شيئاً أو سبباً معيناً أدّى به إلى هذا الاعتقاد — كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نحكم ما إذا كان هـذا الرأى خاطئاً أم صحيحاً ؟ وذلك لأن الناقد نفسه لم يخبرنا ولم يعلل ما يقوله : لم يكن (أرسطو) ليسمح لنفسه بأن ينقد بهذه الطريقة ، ولـكن تعال معى نرى كيف كان (أرسطو) يعالج مثل هذا الرأى لو أنه كان يدين به مثلما كان يدين الناقد الانجليزى ، فانه إذا ما قال إن الفن الزائف إنما يأتى من الرجوع إلى الطبيعة والحياة أتبع قوله بأن ذلك صحيح لأن (هوميروس) لم يذهب إلى الحياة فى البحث عن مادته (هذه أمثلة فقط ولا تعتبر صحيحة) ، وأن كل روعة فن (إيسكلس) إنما تأتى من اعتماده على أساطير الآلهة كمادّة لفنّه وأن فن (أريستوفانيس) كان أحط وأقل قيمة لأنه كان يصور الحياة ويستمد منها . ذلك أن (أرسطو) لا يسمح لنفسه بأن يكون نظرياً ، بل يجب أن يعطيك براهين وأمثلة وأسبابا تعليل ما يقول

خذ مثلاً آخر حديثه عن طول القصيدة القصصية إذ يقول: (يمكن فى هذا الصنف من الشعر أن تعالج جميع أجزاء القصة معالجة مناسبة من حيث الزمن الذى يأخذه سير حوادثها فى الحياة ، أما فى القصة المسرحية فالأمر يختلف إذ أنك لو عالجت حوادث القصة فى مثل ما تعالجها من الطول فى القصيدة القصصية ، كان الأثر الذى تحدثه فى النفس أثراً سيئاً يجلب الملل والسأم ؛ قد يبدو هـذا القول نظرياً ولـكنه يتبعه بأن يقول : (إن صحة ما نقوله واضحة لأن كل من حاول أن يصوغ قصة سقوط (تروادة) صياغة مسرحية ، ولم يعن بأن يختصر فى الحوادث أو يركزها قد فشل فشلاً تاماً)

كان (أرسطو) سريع اللاحظة ، حاضر الذهن ، يعقت النوع من القضايا الذى لا يبرره سبب أو يشرحـــه مثال ، كما أن المنطق كان دائماً رائده فى البحث والنقد — ذلك لأن طبيعة عقله كانت طبيعة عمليـة واقعية مثل طبيعة أهله وقومه الاغريق . وهو إن سرد لك قضية من القضايا ، أو نظرية من النظريات سردها فى بساطة وغير كلفة تشعرك بأنك كنت تعلمها من قبل ، وأن عكس هذه القضـية لا يمكن أن يوجد أو أن يكون صحيحاً ، كما أن قضاياه تمتاز بأنها يمكن أن تستخلص منها قضايا أخرى صغيرة ، وأن تبنى عليها نظريات أكبر وأوسع أفقاً

فى رأى أرسطو كناقد أن الشعر نوع من التقليد والمحاكاة — تقليد الحياة والطبيعة — وفى رأى (شلى) كناقد أيضاً أن « الشعر هو مايجيل الأشياء كلها جمالاً — فهو يزيد الجميل جمالاً ويزين القبيح ويجمله » — كلنا يعرف أن قول (شلى) هذا صحيح ، وأن الشعر فعلاً يؤدى كل هذا ، ولـكن هل نستطيع أن نسمى هذا القول تعريفاً للشعر ؟ هنا نشعر بالفارق بين الناقد الشعورى والناقد الفـكرى ، فـكلامها يعبّر عن أشـياء صحيحة حقيقية ، ولـكن الثانى يجعلك تلمس ما يقول وتبصره ، بينما يسحر الأول سمعك ثم يتركك وعضى — وقد لا يكون تعريف أرسطو للشعر فى جمال أو حـلاوة تعريف (شلى) لـكنه ملموس محسوس نستطيع أن نبصره فى وضوح وأن نبنى ونعتمد عليه

وهناك فارق آخر بين الناقدين يبدو لنا أيضاً من خلال تعريفهما للشعر ، فواضح من سطور شـلى أن الناقد لا يعنى فقط بطبيعة ما ينقده وماهيته ، بل يعنى أيضاً بالغرض والرسالة التى عليه أن يؤديها الشعر — مما يجعل البحث بعيداً عن روح العلم — فى حين أن (أرسطو) لا يتساءل مطلقاً عن رسالة الفن أو الشعر فى الحياة ، بل كل ما يهمه أن يبحث طبيعتهما وأن يشرحهما لنا — شأن العالم الـكيميائى أو الطبيعى —

وقد كان (لأرسطو) وجهة نظر فى نقده خاصة به ، وأعنى بها أنه كان يرى أن لـكل فنّ من الفنون ، قصصاً كان أم شعراً غنائياً ، نهاية طبيعية لا بد أن يصل إليها وألا يتعداها ؛ فان أراد صاحب الفن أن يتعدى بفنه نهايتـه كان مآله الفشل ومصيره السقوط الذى لا نجاة منه ، فقد يصل شـعر شاعر مثلا مرتبة النضوج والـكمال ، وهو فى سن الثلاثين ، غير أنه مهما عمّر الشاعر بعد ذلك من سنين ومهما زاده العمر من حكمة وتجارب ، فان شـعره لن يزيد ولن ينضج أكثر مما نضج — وقد لا يرى البعض هذا الرأى غير أنه — فى اعتقادى — رأى لا بأس به ، ساعد على تكوينه لدى (أرسطو) حب الاغريق الغريزى للاعتدال والوسط ، وخوفهم من بطش الآلهة وغيرتها إن اشتدّ الرجل منهم أو زها وعظم أكثر من اللازم . وقد كان التوسط والاعتدال رائد الاغريق فى كل شىء ، ولم يكن التطرّف عندهم ذنباً فحسب بل جريمة كبرى ، ولذلك نرى الاعتدال أظهر ما يميز أدبهم وفنهم ، ولذلك أيضاً كان (أرسطو) مؤسس المدرسة الفكرية التى تمنح نفسها للمنطق والعقل وتحاذر كل الحذر من الشعور والعاطفة

والآن وأحسبنى قد بسطت بعض البسط طريقة (أرسطو) فى النقد وقارنتها بالطريقة الشعورية الأخرى أحب أن أقول كلمة عن المذهبين

إن كل ما يفعله (أرسطو) هو أن يشرح ويفصل ويرتب ويصنف ليعطينا فى النهاية مجموعة من القوانين والقضايا ما أحسبها تخلق فناناً أو تصلح من شأن فنان آخر . وهو فى هذا يخاطب الفكر لا العاطفة ، وإنى كلما تصوّرته يعالج (شكسبير) يضيق بى الخيال ولا أدرى كيف كان يتيسر (لأرسطو) أن يفعل هذا

قد كنا نفهم بعض صـفات فن شكسبير ومميزاته من نقد (أرسطو) له . على أنى أشك كثيراً فى أنه كان يجعلنا نتفهم الشاعر نفسه ونعشقه مثلما فعل (كولريدج) و (هزلت) و (تين)

وفى رأيى أن أعلى أنواع النقد ما كان يؤثر فى النفس ويوحى